المحاضرة التاسعة : المعنى الاتصالي للفن

في كتاب (ما هو الفن) التي نشره عام ١٨٩٧، أرسى (ليو تولستوي) الفيلسوف والروائي الروسي، المبادئ الأولية لفلسفة جمالية-اجتماعية كانت ولا تزال إحدى الركائز الأساسية لتفسير مفهوم الفن. فقد ركز تولستوي على مجادلة معظم النظريات الفلسفية الجمالية التي كانت سائدة آنذاك والتي يعود تاريخ نشأتها إلى ما بين القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، والتي يتشكل قوامها في صياغة فحوى الفن على مبادئ غارقة في المثالية ومفاهيم شديدة النسبية مثل الحقيقة والجودة والحسن. وتوطئة لطرح موقفه الفكري المخالف ، بدأ تولستوي بتفنيد الموقف الأفلاطوني الذي يقوم على إعطاء تقليد الطبيعة قيمة الإبداع العليا والركون إلى العلاقة المبهمة بين الفن والمتعة في صياغة مبررات وجود الفن، معتبرًا ذلك الموقف موقفًا متأرجحًا مراوحًا في مكانه. ركز تولستوي على حقيقة أن التجربة الفنية تتمحور حول تجربة الفنان العاطفية الوجدانية وإيصالها إلى الجمهور، ولهذا فقد رأى أنه لابد للفن من إقامة الصلة بين الفنان وجمهوره ، والاهتمام بنوعية تلك الصلة. فبقدر تمكن الفنان من التأثير على الجمهور واستنباط الأساليب الخلاقة لإلهاب مشاعرهم وكسب عواطفهم ، تتحدد جودة الفن . ولذلك فإن مفهوم الفن لدى تولستوي لا يتعدى كونه ذلك النشاط الإنساني الإبداعي الذي يسمح بنقل تجارب الآخرين عبر لغة العواطف ومن خلال مخاطبة الوجدان الإنساني بأدوات تعكس الفكر السائد ووسائل تتناسب مع روح العصر. ويمكن استخلاص الركائز الأساسية لفلسفة تولستوي في الفن بما يلي:

- الرفض القاطع للتفسيرات الميتافيزيقية للفن، وبخاصة رفض موضوع الفن كمتعة مجردة، وتبني المنهج الذي يعتبر الفن شرطًا من شروط الحياة الإنسانية وإحدى المقومات الطبيعية لتفاعل الإنسان مع محيطه الاجتماعي.

- التأكيد على اعتبار الفن نشاطًا إنسانيًا واعيًا يتم بموجبه نقل التجارب الحسية والعاطفية من الفنان إلى الآخرين بواسطة النتاج الفني الذي ينبغي أن يعمل كوسيلة اتصال ثقافية. وبهذا المنطق يتوجب فهم الفن بأنه العملية والوسيلة التي يتم بموجبها نقل التجارب الشعورية التي يعيشها الفنانون إلى محيطاتهم الاجتماعية. وبسبب اختلاف التجارب الشعورية في حدتها وأهميتها وآثارها فإن نجاح الفن سيتركز حول قوة استحضار التجربة سواء كانت انعكاسًا لأحداث حقيقية أم أنها كانت مختلقة من محض الخيال.

- التأكيد أيضًا على كون الفن مناسبة وأداة لانصهار الشعور الإنساني والتحام العواطف، مما يجعله فعالية ضرورية لديمومة الحياة وتطورها. فلولا مشاركة المشاعر وتبادل الأحاسيس بين الناس والتحاور بالتجارب عبر الأجيال والثقافات وحقب التاريخ لتحولت حياة البشر إلى ما يشبه حياة الغاب. وعلى هذا الأساس فإن وجود الفنون وتفعيلها لا يقل ضرورة عن وجود اللغات ، ودورها الأساس في تأمين الاتصال والتحاور والتفاهم الاجتماعي، على أن غياب الفنون أو تجميد دورها من شأنه أن يشل التفاعل الإنساني الإيجابي ويفسح المجال لمزيد من العزلة ويوجد المبرر لتنامي العدوانية والعنف.

- اعتبار المعيار الأساس في تفريق الفن الحقيقي عن الفن الزائف متمثلًا في قدرة الفنان على استحضار المشاعر ومخاطبة الأحاسيس وإلهاب العواطف وتحقيق الالتحام الروحي بين الفنان والمتلقي من جهة وبين المتلقي ومحيطه من جهة أخرى. وهذا ما يساهم في تحديد قيمة الفنون بمدى قابلية التجارب الشعورية المتجسدة في العمل الفني للنفاذ إلى دواخل الآخرين والتأثير فيها. على أن نطاق هذا التأثير سيعتمد على:

- مدى خصوصية لغة التجربة وفردانية المشاعر المتجسدة في العمل.

- مدى وضوح التجربة ونضوجها.

- مدى صدق الفنان في التعبير عنها.

- التأكيد على ضرورة تعامل المجتمع مع الفن تعاملًا عقلانيًا من حيث مساحة الحيز التي يتطلبها النشاط الفني، ذلك أن التطرف والمبالغة في تقليص أو توسيع هذا الحيز سيؤدي على السواء، إلى نفس الخسارة. فمنع الفنون والتضييق عليها ومحاربتها من جهة، أو الإسراف والإسفاف فيها وتحويلها إلى أدوات مبتذلة، من جهة أخرى، سيقود إلى نفس الطريق العقيم المسدود الذي يفقد الفن فيه معناه وتأثيره.